تحليق في سماء الإبداع

من الشعراء من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشى على رجلين، ومنهم من يمشى على أربع، ومنهم من يطير كالمتنبي، لكن بارتفاع سبعة وثلاثين قدمًا عن سطح البحر، فهو - دائمًا - محلق، وإن اقترب أحيانًا من الأرض، كما يقول هو عن العلو:

ذي المعالي فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تعالى هَكَذَا هَكَذَا وإلا فلا لا

شرفٌ ينطحُ النجومَ بِرَوْقَيْـ ـهِ وعزٌّ يقلقل الأجبالا

فالرجل صاعد بموهبته، ولا يريد أن توازنه بغيره من الشعراء:

أجزني إذا أُنشدتَ شعرًا فإنما بشِعْري أتاكَ المادحون مردَّدا

ودعْ كلَّ صوتٍ غير صوتي فإنني أنا الطائرُ المحكي والآخر الصّدى

فهو يطلب إليك أن تفرده بالاستماع والإعجاب وحده؛ لأنه محلق وسواه ماشٍ.

والآن يريد أن يخبرك بصعوبة المجد، وثمن التضحية، ومهر المعالي، فيقول:

تريدين لقيانَ المعالي رخيصةً ولابدَّ دونَ الشهدِ من إبرِ النحلِ

فنصف البيت مقدمة خطابية، والنصف الآخر دليل وبرهان، ولكن يسمو في أمثاله، فهو يستعمل التشبيه المعروف، ولكنه الراقي الذائع، وأراد أبو فراس الحمداني المعاني نفسها فقال:

تهونُ علينا في المعالي نفوسُنا ومن طلبَ الحسناءَ لم يُغْلِه المهرُ

وأنا أرى أن بيت المتنبي أجمل وأكمل، وأما بيت أبي فراس فهو على شهرته به جدري في وجهه؛ لأنه قال: «لم يغله المهر» أي أراد لم يغل عليه المهر، فلا يرقى إلى سمو شاعرية المتنبي، وتدفق ذاكرته الخلابة الخصبة.

ويقول في باب آخر:

وما صَبَابةُ مشتاقٍ على أملٍ من اللقاءِ كمشتاقٍ بلا أملِ

فهو يخترع معنى بديعًا في الحب، ويوجد فارقًا معقولًا بين الشوق مع أمل اللقاء والشوق بغير أمل، فبيته أسمى وأرقى من قول الشاعر:

أحدثُّ نفسي باللقاءِ وقربِه وأوهمُها لكنَّها تتوهمُ

فإن البيت الأخير على جمال فيه ساذج مكشوف، وأحسن منه قول الشاعر:

أحدثُّ النفسَ بالآمالِ أرقبُها ما أَضْيَقَ العيشَ لولا فسحة الأمل

وأحسن من هذا وأجمل قول الشاعر:

منى إنْ تكنْ حقًا تكنْ أحسنَ المنى وإلا فقدْ عِشْنا بها زمنًا رغدا

ولكن جرس المتنبي وموسيقاه لها طعم آخر، ومذاق يختلف عن كل مذاق.

حتى إنك إذا سمعت قوله:

وأنا الذِّي اجتلبَ المنيةَ طرفُه فمن المطالبُ والقتيلُ القاتلُ؟!

فإنه يطريك ويعجبك؛ لأنه يغوص على المعنى، ثم يوشيه لفظًا أجمل من زهر الرياض، ثم يختار المفرد فيأسر قلبك، وأنت إذا أمعنت النظر في بيته المتقدم، لا تدرك المعنى من أول وهلة، حتى تتأمل وتُمْعن النظر، وتعيد البصر كرتين، لأن المعنى المتبذل المكشوف رخيص، كالبضاعة المعروضة بعرض الطريق؛ من خشب وحجارة، بخلاف الذهب والماس، فإنه يوضع خلف الأبواب عليه الأقفال لارتفاع ثمنه.

وقد طرق الأرجاني معنى المتنبي:

أعينيَّ كفَّا عن فؤادي فإنَّه ... من البَغي سعي اثنين في قتل واحد

وبيت المتنبي أرق وأمتع؛ لأن بيت الأرجاني فيه محاكمة قضائية وخصومة.

وقال آخر:

عُوقِبَ قَلْبي وجَنَى ناظري ... وربما عُوقِبَ من لا جَنَى

وهذا بيت رث غث، ليس له إشراق وروعة كبيت أبي الطيب. وفي الغالب لا لا توازن بين أبي الطيب وشاعر آخر إلا وجدت له تفوقًا وارتفاعًا، اسمعه يقول في وصف شجاعة ممدوحه:

تعوَّدَ أنْ لا تقضمَ الحبَّ خيلُه ... إذا الهامُ لم تَرفع جُنُوبَ العلائقِ

ولا تَرِدَ الغُدرانَ إلا وماؤُها ... من الدَمِ كالريحانِ فوقَ الشَّقَائق

فما أجمل الوصف، وما أجمل المدح، ووازنه بقول ابن عنين:

وتعافُ خيلُهم الورودَ بمنهلٍ ... ما لم يكنُ بدمِ الوقائعِ أحمرا

فإنك تجد المتنبي أرقى صورة، وأشد تأثيرًا، واسمع إليه في هذه الثلاثة الهائمة الساحرة:

إن كُوتبوا أَوْ لَقُوا أو حَوربوا وجَدَوا ... في الخطِّ واللفظِ والهيجاءِ فُرسانا

كأن ألسُنَهُم في النطقِ قد جُعِلَت ... على رماحِهِمِ في الطَّعنِ خِرصَانا

كأنهم يرِدونَ الموتَ من ظمأٍ ... أو يَنْشِقون من الخطّيِّ ريحانا

واسمع إليه يقول:

كأنَّ الهامَ في الهَيْجا عُيونُ ... وقد طُبِعت سُيوفُك من رقادِ

وقد صُغتَ الأسنّةَ من هَمومٍ ... فما يَخْطُرن إلا في فُؤادِ

وقال حساده إنه سرق المعاني من منصور النميري إذ يقول:

وكأنَّ وقعَتَه بجُمْجُمةِ الفَتَى ... خَدَرُ المنيةِ أو نُعاسُ الهَاجِعِ

وقول المهلهل:

الطاعنُ الطعنةَ النجلاءَ تحسبُها ... نومًا أناخَ بجفنِ العينِ يغفِيْها

وقول ابن المعتز:

أينَ الرماحُ التي غذيتَها مهجًا ... مُذ متَّ ما وردتْ قلبًا ولا كبدا

وقول أبي تمام:

كأنَّه كانُ تربَ الحبِّ مُذ زمنٍ ... فليسَ يُعجِزُهُ قلبٌ ولا كبِد

وليس عليها جميعًا ما يُقال له طيب، غير قول أبي الطيب، وأين فضل الطل من الوابل الصيب، فشاعرنا متفرد متوحد متميز.